مقابلات متميزة في القرآن الكريم (دراسة بلاغية)

أ.د. كمال عبد العزيز إبراهيم

ملخص البحث

يمثل أسلوب المقابلة ظاهرة بلاغية في القرآن الكريم تختلف عن المقابلات التي أوردها علماء البلاغة لأنهم قسموها إلى مقابلة اثنين باثنين وثلاثة بثلاثة وأربعة بأربعة وخمسة بخمسة وأقصى مقابلة أوردها البلاغيون كانت ستة بستة ومثلوا لها بقول الشاعر:

على رأس حر تاج عز يزينه وفي رجل عبد قيد ذل يشينه

ولكن السمة الغالبة على المقابلة في القرآن الكريم أنها مقابلة المواقف الكلية كالمقابلة بين المؤمنين والكافرين وبين صور النعيم والعذاب في الآخرة وبين مواقف المنافقين والمؤمنين... إلخ

وفي خلال رحلة البحث الطويلة عن المقابلة في القرآن الكريم استطعت بفضل الله وتوفيقه – أن أضع يدى على مقابلات فريدة في القرآن الكريم، تمتاز عن غيرها بالجدة والطرافة.

ويسلط هذا البحث الضوء على عدد من المقابلات المتميزة في القرآن الكريم لم يلتفت إليها البلاغيون القدماء ولا الباحثون المعاصرون (على ما أعتقد) وقد قسم الباحث تلك المقابلات إلى:

١ - المقابلات بين السور مثل المقابلة في مطلع السورتين كما في سورتي النساء والحج والمقابلة بين أهم ما في السورتين كالتي بين الأنفال والتوبة والمقابلة ما بين معظم ما في السورتين كالتي بين سورتي المؤمنون والمنافقون والمقابلة بين كل ما في السورتين كالتي بين سورتي الشمس والليل.

٢ - مقابلات في السورة الواحدة وقد ورد ذلك في سور المؤمنون، يوسف، القمر، الحجر والليل.

٣ - نماذج أخرى متنوعة، والمنهج الذي سار عليه البحث هوالمنهج التحليلي البلاغي والله الموفق

تمهيد:

في خلال رحلة البحث الطويلة عن المقابلة في القرآن الكريم استطعت بفضل الله وتوفيقه – أن أضع يدى على مقابلات فريدة في القرآن الكريم، تمتاز عن غيرها بالجدة والطرافة.

وأشهد أن مالفت نظرى إلى مثل هذه المقابلات في القرآن، إنما كان بعض الإشارات غير المقصودة من جانب الزمخشرى في الكشاف والزركشى في البرهان وغير ذلك من المصادر العديدة التي استعنت بها.

وعلى سبيل المثال، فإن الجملة القصيرة التي نقلها الزمخشرى عن أبيّ بن كعب وهو يبحث عن السر في عدم تصدير سورة (براءة) بالبسملة، وهو (ان في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود١).. كانت هذه الجملة حافزا لي على محاولة تبين ما بين السورتين من تقابل، ثم محاولة البحث عن نظائر لمثل هذه المقابلة.

ومثلها إشارة الزركشى في البرهان إلى أن (في القرآن سورتين أولهما ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾، إحداهما تشتمل على شرح المبدأ والثانية تشتمل على شرح المعاد، وهما سورتا (النساء والحج٢)، وذلك في خلال حديثه عن خطاب الجنس في القرآن الكريم.

وقد دفعتنى مثل تلك الإشارات العابرة إلى البحث عن المقابلات المتميزة في القرآن الكريم، فاهتديت – بفضل الله – إلى العديد منها، ورأيت في تسجيلها هنا دليلا جديدا على إعجاز القرآن الكريم وسمو بلاغته وتفرده، عن غيره من أساليب البشر بالجديد والطريف.

ومن هذه المقابلات ما يأتى:

أولا – المقابلات بين السور:

وردت المقابلة بين السور في القرآن الكريم في أكثر من صورة، ويمكن لنا تصنيفها على النحو التالى: -

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

أ – مقابلة بين مطلع السورتين فقط:

وذلك كالمقابلة التي التقطناها من إشارة الزركشى بين مطلع سورتى النساء والحج، ففي مطلع سورة النساء شرح للمبدأ أي بداية الحياة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١).

وتستمر السورة بعد ذلك في تشريع النظم والقوانين التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض في الدنيا: كرعاية اليتامى، والنساء، والزواج والميراث.

ويقابل ذلك مطلع سورة الحج الذي يشتمل على شرح المعاد ونهاية الحياة على الأرض وبداية يوم القيامة. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ (الحج: ١–٢) ، وتستمر السورة بعد ذلك في الحديث عن يوم البعث وما فيه من حشر ونشر وجنة ونار، إلى الربع الاول.

ونحن نلاحظ – مع هذا التقابل بين السورتين – أن القضيتين اللتين وردتا في مطلعيهما من الخطورة بمكان، ومن ثم كان الخطاب في كليهما ب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ رغم ندرته في القرآن المدنى، فإن رعاية اليتيم قضية إنسانية باعتبار أن اليُتْمَ موجود في كل زمان ومكان، وكذلك اليوم الآخر، فإنه قضية عامة لم تخل أية أمة من الأمم من تصوره على نحو من الأنحاء...

ولذلك صدر الخطاب فى السورتين المتقابلتين بتقوى الله فهى العاصمة من زلل الدنيا، والمنجية من زلزلة الآخرة.

ب – مقابلة بين أهم ما في السورتين:

وأعنى بها تلك المقابلة التي أشار الزمخشرى إليها دونما قصد بين سورة الأنفال وسورة التوبة أو (براءة) حيث ورد في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود، ومن ثم لم تصدر (براءة) بالبسملة على اعتبار أنهما قرينتان، فهما كسورة واحدة.

ويمكن توضيح نقاط التقابل بين السورتين فيما يأتى: –

١– حفلت سورة الأنفال بذكر العهود التي يجب على المسلمين أن يلتزموا بها في معاملة الأعداء في الحرب والسلم على السواء ففي الحرب: فيها بيان أحوال معاملة الأعداء حال وفائهم بالعهد أو خيانتهم له، وكيف يحل المسلمون معهم العهد إن خافوا خيانتهم، وبيان معاملة الأسرى، والأمر بالاستعداد للعدو بما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل بغرض الترهيب والتخويف وكسر الشوكة.

قال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾ (الأنفال: ٥٥ – ٦٠).

وفي حالة السلم: بينت السورة أحكام السلم إن طلبوا السلم والمهادنة وكفوا عن حالة الحرب، فأمر الله المسلمين بألا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سأله منهم.٣ قال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾ (الأنفال: ٦١).

ولقد كان من نتائج هذه التوجيهات في سورة الأنفال، كثير من المعاهدات بين المسلمين واليهود، وبين المسلمين والكفار، ومن أهم هذه المعاهدات صلح الحديبية بين الرسول وكفار مكة قبل الفتح.

٢– أما سورة براءة فإن اسمها يعنى (الخروج والتَفَصِّى مما يُتْعِب ورفع التبعة) ولما كان العهد يوجب على المتعاهدين العمل بما تعاهدوا عليه ويعد الإخلاف بشىء منه غدرا على المخلف كان الإعلان بفسخ العهد براءة من التبعات التي كانت بحيث تنشأ عن إخلاف العهد فلذلك كان لفظ براءة هنا مفيدا فسخ العهد ونبذه ليأخذ المعاهدون حذرهم.٤

والآيات الأولى من السورة تتحدث عن نبذ العهود التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، في مقابل ما تضمنته سورة الأنفال من ذكر للعهود.

ونبذ العهود في السورة إشعار وإعلان للأعداء أن ما بينهم وبين المسلمين من عهود مطلقة سوف تنتهى بعد أربعة أشهر: بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾ (التوبة: ١ – ٣).

أما العهود المقيدة بمدة معلومة، فيجب على المسلمين الوفاء بها إلى أجلها ما لم يبدر من الطرف الآخر ما يشير إلى الغدر أو النقض: (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) ﴾ (التوبة: ٤).

وتستمر السورة بعد ذلك في بيان كيفية نبذ هذه العهود وما يترتب عليها، وفي بيان الأسباب وراء اتخاذ هذا القرار الخطير في تاريخ الإسلام: (كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) ﴾ (التوبة: ٨-١٢).

وقد بين السيد رشيد رضا الحكمة في ذلك بقوله: (ثبت بالتجربة لهم في حالى قوتهم وضعفهم أنهم لا عهود لهم، ولا يؤمن نقضهم وانتقاضهم، فلا يمكن للمسلمين أن يعيشوا معهم بحكم المعاهدات المرعية، مع بقائهم على شركهم الذي ليس له شرع يدان)٥.

ولهذا تفصل السورة القول في نبذ هذه العهود إلى أن تصل إلى الحسم والتحديد في نبذ عهود المشركين وأهل الكتاب على السواء. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾ (التوبة: ٢٨-٢٩).

ج – مقابلة بين معظم ما في السورتين:

ونلمس ذلك في المقابلة بين سورتى (المؤمنون)، و (المنافقون) والتقابل بين السورتين هو تقابل بين معظم ما فيهما وليس التقابل الكلى كما سنراه فيما بعد...

وأوجه التقابل بين السورتين:

أولا: التقابل في الاسم ما بين (الإيمان والنفاق).

ثانيا: التقابل في النزول، فسورة (المؤمنون مكية) وسورة (المنافقون [مدنية]).

ثالثا: التقابل في الموضوعات التي تعالجها كلتا السورتين.

ففي معظم السورتين نجد حديثا صريحا مكشوفا عن صفات كل من المؤمنين والمنافقين ونرى تحديدا لمعالم شخصية كل منهما، ثم حديثا عن عاقبة كل فريق:

فالمؤمنون: يعاجل القرآن بوصفهم أولا بالفلاح: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ وهو هنا مسوق في المقدمة للبشارة والطُّمْأنَة، ثم تفصل السورة بعد ذلك القول في صفات هؤلاء المفلحين، وهى صفات تكشف عن طبيعة الإيمان وأثره في نفوس المؤمنين. هذا الأثر الذي يشمل مختلف الجوانب للعلاقة السوية بين المؤمن وربه ومجتمعه وأسرته:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) ﴾ (المؤمنون: ٢-٩).

وبعد ذلك تأتى نتيجة التمسك بهذه الصفات النبيلة التي تمثل معلما من معالم الشخصية المؤمنة:

(أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ (المؤمنون: ١٠-١١).

أما المنافقون: فان سورتهم تبادر بإبراز أهم معلم من معالم النفاق، وهو الظهور بوجهين: الحديث إلى النبي بوجه الإيمان وفي نفس الوقت إبطان الكفر والكذب:

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ١).

وقبل الاستطراد في تحديد ملامحهم تَصمُهُمْ بسوء الأعمال: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ (المنافقون:٢)، إنهم بتلك الأَيْمَان المغلظة التي يحلفونها لتأكيد إيمانهم وصدقهم بينما هم يخفون الكفر، إنما يصدون الناس أو يصدون أنفسهم عن سبيل الله، فبئس هذا العمل وساء ما كانوا يعملون.

ثم تواصل السورة بيان صفاتهم: إنهم ذوو أجسام فارعة تعجب الناظرين ما داموا في صمت، فإذا تحدثوا أظهر حديثهم أنهم خواء من كل معنى أو قيمة، كما إنهم جبناء تطير قلوبهم هلعا وفَرَقًا من كل صيحة، متكبرون يَلْوُونَ رءوسهم صدا وعلوا وبالإضافة إلى ذلك فهم مناعون للخير، محرضون على البخل بينما خزائن السموات والأرض كلها لله، ثم هم يستغلون الخلاقات وينمونها، ظنا منهم أنهم هم الغالبون، وإنَّ العزةَ لله ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يفْقَهُون (الآيات ٤ – ٨).

ثم تستمر سورة (المؤمنون) بعد ذلك – شأن السور المكية – في سوق دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، وفي عرض قافلة الأنبياء عليهم السلام من نوح إلى محمد الخاتم – إلى أن تنتهى بعرض صورة من صور عاقبة التكذيب يوم القيامة، وتقرير التوحيد ووصم الكافرين بالخسران وعدم الفلاح.

أما (المنافقون) فلأنها من قصار السور نراها تلجأ – بعد تلك الحملة العنيفة على المنافقين – إلى تحذير المؤمنين من الأفعال التي يمكن أن تقربهم من صفات المنافقين.

وبالمقارنة بين السورتين نرى أن معظم ما في السورتين متقابل: إن المؤمنين أصحاب منهج واضح وشخصية محددة لا لفَّ فيها أو دوران، ومن ثم كانوا الوارثين للفردوس وكانوا المفلحين، بينما المنافقون مُتَلَوِّنُونَ تَلَوُّنَ الحِرْبَاء لا يثبتون على وجه واحد انتظارا وتربصا، آمنوا ثم كفروا فطبع الله على قلوبهم.

والمقابلة في هذا الباب مقابلة معان وليست مقابلة ألفاظ، وفيها كما يذكر ابن الأثير: (باب عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر) ٦

د – مقابلة بين كل ما في السورتين:

وقد وجدت هذا التقابل في موضعين: الأول بين سورة الشمس وسورة الليل، والثاني أشار إليه أحد الواعظين – بين سورة الماعون وسورة الكوثر.

١- بين سورة الشمس وسورة الليل:

إن المتأمل في هاتين السورتين يبهره هذا التقابل التام بينهما ويمكن حصر وجوه التقابل بينهما فيما يأتي:

الوجه الأول: التقابل بين اسمى السورتين (الشمس والليل).

الوجه الثاني: التقابل بين القسم فيها: فالقسم في الشمس ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١)﴾ يقابله في الليل وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾. وفي الشمس ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ يقابَل في الليل ب ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾.

الوجه الثالث: التقابل بين المقسم عليه في كل منهما.

فالمقسم عليه في سورة (الشمس) أو جواب القسم: أن من زكى نفسه وطهرها ونماها وأعلاها فقد ربح وفاز، ومن سلك سبيل الشر وطاوع داعى الشهوة البهيمية ودسَّى نفسه أى أنفضها وأخفاها، فقد خاب وخسر٧.. أى أن المقسم عليه هنا هو النفس من الداخل أو هو الإرادة والعزيمة الداخلية للإنسان: تقوى وتشتد فتزكو النفس وتسمو، وتضعف وتخور فَتَتَدَسَّى النفس وتَخْمُلُ وتلؤم وتصاب بالغواية والفساد.

أما المقسم عليه في سورة (الليل) فإنه السلوك الخارجى أو الفعل وهو مقابل تماما لما رأيناه في الشمس وهو النفس من الداخل إنه هنا السعى والحركة الظاهرية المترتبة على الإرادة.

فالذي طهر نفسه وزكاها من الداخل (في الشمس) أعطى واتقى وصدق بالحسنى في (الليل) فيسر الله له الأمور.

والذي دساها وأخملها هناك: بخل واستغنى وكذب بالحسنى هنا فضيق عليه.

إن المقسم عليه في سورة الشمس شيء لا تراه العيون، خفيٌّ في نفس الإنسان. أما المقسم عليه في سورة الليل فهو السعى الظاهر الملموس. وهذا هو وجه التقابل بين المقسم عليه في كلتا السورتين.

الوجه الرابع: التقابل بين مثل الكفر ومثل الإيمان في السورتين.

وأعنى به ذلك التقابل بين الصورة

القبيحة لتكذيب ثمود وكفرها وعصيانها حين عقرت الناقة وخالفت ما أوصى به رسول الله (صالح) وبين الصورة الوضيئة المشرقة لمن يؤتى ماله يتزكى به وتتطهر نفسه وتنمو ابتغاء رحمة ربه الأعلى. ومن ثم كان التقابل أيضا بين نتيجة الكفر والتكذيب

﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾، ونتيجة الإيمان والتطهر هي البعد عن النار ولهيبها وله بعد ذلك الرضا ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾

وهكذا رأينا التقابل التام بين السورتين في المطلع والوسط والختام.

٢- بين سورة الماعون والكوثر:

وعلى الرغم من قصر السورتين، وقصر الكوثر عن الماعون، إلا أن الإمام البيضاوى ألمح إلى وجه التقابل بينهما وهو يفسر قوله تعالى في سورة الكوثر ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ حين قال: قَدِّمْ على الصلاة خالصا لوجه الله خلاف الساهى عنها المرائى فيها، (وَانْحَرْ) البُدْن التي هى خيار أموال العرب وتَصَدَّقْ على المحاويج خلافا لمن يدعهم ويمنع عنهم الماعون فالسورة كالمقابلة للسورة المتقدمة.٨

ثم وضح صاحب (درة الناصحين في الوعظ والإرشاد) نقلا عن شيخ زاده وجه المقابلة بين السورتين، بأن الله وصف المنافقين في سورة الماعون بأربعة أمور:

بالبخل: وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) ﴾

وبترك الصلاة: وهو المراد من قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾.

وبالرياء في الصلاة: وهو المراد من قوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾.

وبمنع الزكاة: وهو المراد من قوله: ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾.

فذكر في مقابلة ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قوله ﴿ فصل ﴾.

وذكر في مقابلة ﴿ يُرَاءُونَ ﴾ قوله ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ أى خالصة لوجهه تعالى .

وذكر في مقابلة البخل ومنع الزكاة والمعونه، قوله ﴿ (وَانْحَرْ ﴾ لأن بذل خيار الأموال يقابل البخل، ثم ان صرفها على المحاويج يقابل الماعون.٩

.... وهكذا ظهر لنا وجه التقابل بين السورتين، وهذا يدل على أن القرآن الكريم حافل بالأسرار البلاغية التي تنتظر من يكشف سترها ويجليها للناس فيقبلون على القرآن – علما وفهما وسلوكا – كما يقبلون عليه منهجا ودستورا.

ثانيا: مقابلات في السورة الواحدة:

وهى المقابلات التي تكون في داخل السورة، وتأتى بصور متعددة أيضا على النحو التالى:

أ – مقابلة بين مطلع السورة وختامها:

ومثل هذه المقابلات يتخذها القرآن عادة وسيلة للربط الفنى بين أوائل السور وأواخرها مما يوحى بالوحدة الفنية التي تلتزمها السورة على كثرة ما بداخلها من موضوعات.

وقد ورد التقابل بين مطلع السورة وختامها في موضعين هما:

١- سورة (المؤمنون).

٢- وسورة (يوسف).

ففي مطلع سورة (المؤمنون) يرد قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾، وفي ختامها يرد قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ في سياق تقرير الخسران الأكبر لمن يشرك بالله (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المؤمنون:١١٧)، ومن أجل ذلك يطلب الله من الرسول ومن المؤمنين التوجه بالدعاء طلبا للرحمة واستعاذة من الكفر وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ١١٨).

وفي سورة يوسف عليه السلام يتقابل ما رآه سيدنا يوسف في المنام في مطلع السورة مع ما تحقق بالفعل في واقع الحياة. في أواخر السورة (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف:٤)، هذه هى رؤيا يوسف، تقابلها الحقيقة في آخر السورة (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ (يوسف: ٩٩-١٠٠).

ب- مقابلة بين مجموع السورة وآخر آيتين فيها:

وأعنى بها ما ورد من مقابلة بين مجموع سورة (القمر) وبين آخر آيتين فيها.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

فإن السورة في مجموعها تُرَوِّعُنَا بِجَوٍّ الفزع والرعب الذي ينبعث من تصوير ما ينتظر المكذبين بالبعث، وتغشانا سحب الهول والدمار في موجات متلاحقة سريعة من مصارع المكذبين والمعاندين.

وإنَّ استعراضا سريعا لبعض آيات السورة ليطلعنا على هذا الجو، ويلهبنا بتلك السياط.

قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

وقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)﴾.

وفي تصوير مصارع المكذبين يغرقنا طوفان نوح ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ وتزلزلنا رياح عاد ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وتصخ آذاننا صيحة ثمود ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)﴾ وتَحُصُبنا حصباء لوط ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ ويؤخذ آل فرعون أخذ عزيز مقتدر.

وينتقل هذا الجو الرعيب إلى الكفار من أهل مكة والمكذبين بالبعث في مواجهة مباشرة مع العذاب في الدنيا والآخرة ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)﴾.

وعندما تشرف السورة على الانتهاء، ينتهي هذا الجو العصيب المليء بالخوف والفزع والذي تتخلله مطارق منتظمة تشيع فيه روح القلق والتوتر ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ متكررة عقب كل موجة من موجات العذاب.

ثم ينتهي هذا المشهد الصاخب فإذا بآخر السورة يطل بمشهد آخر، ففي كلمات معدودة يذوب الرعب ويتوارى الخوف ويحل محله الأمن والسكينة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. (وهي صورة للنعيم بطرفيه: نعيم الحسّ والجوارح ونعيم القلب والروح في تعبير جامع شامل يلقى ظلال النعماء واليسر حتى في لفظه الناعم المنساب وليس لمجرد إيقاع الفاصلة تجئ كلمة ﴿نَهَرٍ﴾ بفتح الهاء، بل كذلك لإلقاء ظل اليسر والنعومة في جرس اللفظ وإيقاع التعبير١٠). وهكذا يتقابل الأمن واليسر والسهولة في آخر السورة مع الكرب والفزع والدمار في مجموعها كطريق من طرق التعبير القرآني الفريد الذي يربي النفوس تارة بالعنف والترهيب وأخرى باللين والترغيب

ج – مقابلة تشطر السورة شطرين متقابلين:

وهي تلك المقابلة العجيبة الواردة في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾ (الحجر: ٤٩-٥٠)،

وليس وجه العجب هنا هو المقابلة بين الآيتين. وإنما العجب والروعة في أن هذه المقابلة تتوسط سورة الحجر فتشطرها شطرين متقابلين أيضا: الشطر الأول من السورة تكثر فيه الآيات المعبرة عن غفران الله ورحمته بعباده، والشطر الثاني المقابل تكثر فيه الآيات المعبرة عن العذاب الأليم وجدير بالذكر أن السورة تسع وتسعون آية وأن المقابلة واقعة في ايتى تسع وأربعين وخمسين: أى في منتصف السورة تماما.

ونزيد هذا الأمر إيضاحًا فنستعرض بعض جوانب الرحمة والغفران في الشطر الأول من السورة، ثم بعض جوانب العذاب الأليم في الشطر الثاني.

فمن مظاهر رحمة الله بعباده وبالخلق أجمعين في الشطر الأول من السورة حفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل على مر العصور في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ (الحجر:٩).

وحفظ السماء من كل شيطان رجيم: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ (الحجر:١٧)، وبسط الأرض وتثبيتها بالجبال الرواسى كيلا تميد، وإنباتها من كل لون ونوع من النباتات بميزان حكيم يراعى احتياجات البشر والمخلوقات جميعها، وتصريف الناس والدواب في معايش هيأها الله لهم بقدر معلوم وتسخير الرياح للقيام بعملية تلقيح النباتات، وسوق المطر لسقيها، كل ذلك رحمة من الغفور

الرحيم: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)﴾ (الحجر: ١٩-٢٢).

ومن مظاهر الرحمة والمغفرة أيضا حفظ الله لعباده المخلصين من غواية الشيطان:

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾ (الحجر: ٣٩-٤٢).

ثم يختتم الشطر الأول من السورة بما يناسب الشطر الأول من المقابلة وهو وعد الله للمتقين بالجنات والعيون والأمن والسلامة، وتطهير الصدور من أى آثار دنيوية، والاستقرار في هناء مقيم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الحجر: ٤٥-٤٩).

أما الشطر الثاني من السورة فإنه يقابل الشطر الأول منها، لأن فيه الكثير من جوانب العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

ومن هذه الجوانب:

ما حل بقوم لوط عليه السلام نتيجة خروجهم عن الفطرة السوية جزاء عادلا لشذوذهم ودنسهم: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)﴾ (الحجر: ٦٦)، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤)﴾ (الحجر: ٧٣-٧٤). وما حل بأصحاب الأيكة: (وهم قوم شعيب١١)، ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩)﴾ ١٢ (الحجر: ٧٨-٧٩).

ومثله ما أصاب أصحاب الحجر وهم قوم ثمود كما ذكر ابن كثير، حين خالفوا نبيهم وأعرضوا عن آيات الله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾ (الحجر: ٨٠-٨٤).

وكذلك تهديد المقتَسمين الذين جعلوا القرآن عضين، وتخويفهم من مغبة السؤال عما كانوا يعملون في الدنيا حين تحالفوا على الكفر والتكذيب وجَزَّءوا الكتاب المنزل عليهم فآمنوا ببعضه وكفروا بالبعض الآخر: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أى النذير بعذاب يحل على المكذبين من قريش كما حل على السابقين: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ (الحجر: ٨٩-٩٣).

ونحن نرى أن كل هذا مناسب للشطر الثاني من المقابلة ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، وبهذا العرض اتضح لنا أن شطرى السورة متقابلان تقابل آيتى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾، ولئن دل ذلك على شىء فإنما يدل على إحكام البناء الفنى في القرآن الكريم، وسمو هذا النسق التعبيرى على أى نسق آخر. وهذا من إعجاز القرآن الكريم

د- سور كاملة يغلب على أسلوبها التقابل الجزئى:

وقد لمست هذا في سورتى الليل والرعد.

١ - في سورة الليل:

تتميز سورة الليل بكثرة المقابلات بين آياتها، وقد أجملت الدكتورة بنت الشاطئ هذا التقابل والتفاوت بقولها: (أنه يبدأ باللَّفْت إلى ما هو حسى مدرك في تفاوت ما بين غشية الليل وتجلى النهار، وخلْقَة الذكر والأنثى، توطئة إيضاحية لبيان تفاوت مماثل في سعى الناس: بين من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، ثم تفاوت الثواب والعقاب في الأخرى: الأشقى الذي يصلى نارًا تلظَّى، والأتقى الذي يُجَنَّبُها بما ابتغى وجه ربه الأعلى ولسوفَ يرْضَى) ١٣

ونزيد هذا الأمر وضوحا وتفصيلا فنقول إن المقابلة في هذا السورة موجودة في القسم والمقسم عليه. وفي مثل الهدى والضلال وعاقبة كل نموذج.

إنها في القَسَم بالليل إذا يغشى الكون وما فيه، يقابل النهار حين يتجلى فيصبح كل ما في الأرض ظاهرًا واضحا (وهما آنان متقابلان في دورة الفلك ومتقابلان في الصورة. ومتقابلان في الخصائص. ومتقابلان في الآثار) ١٤ وفي القسَم بخلق

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الزوجين الذكر والأنثى، وهما متقابلان في كل شيء.

وفي المقسم عليه وهو اختلاف وتفاوت سعى الناس وسلوكهم وما يترتب على هذا السلوك المتقابل من نتائج وعواقب متقابلة أيضا: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(١٠)﴾ (الليل: ٥-١٠).

إن سعى الناس مختلف ومتقابل في دوافعه وطريقته ونتيجته، فالمخاطبون جميعا من ذكر وأنثى ينقسمون إلى نموذجين متباينين أشد التباين، نموذج يعطى الجهد والنفس والمال وكل شئ ويتقى الله ويخشاه فيتبع أوامره ويجتنب نواهيه ويصدق بالعقيدة الحسنى، ولذلك يسره الله لليسرى والسهولة والنجاة.

وفي مقابل ذلك نجد النوذج الثاني يبخل بنفسه وماله وعرقه ويستغنى عن هدى الله ونوره معتزا بما لديه من مال أو جاه ويكذب بالعقيدة وما يتبعها، لذلك – حين اختار هذا النموذج طريق الضلال بمحض إرادته وجد طريق الضلال والعسر والمشقة سهلا يسيرا.

أما نتيجة هذا السلوك المتقابل يوم القيامة، فإن الآيات تبينه في جو من التقابل يتلاءم مع مقدماته.

فإن من بخل واستغنى وكذب بالحسنى وسار في طريق العسرى ينذره الله نارا تلظى، يشقى فيها جزاء كذبه وتوليه عن الحق والهدى. ويقابل ذلك نجاة الأتقى الذي تزكى بماله ابتغاء وجه ربه الأعلى...

وهكذا رأينا المقابلات تغلف جو السورة كلها، فكأن الله العزيز يقسم بمشاهد متقابلة في الكون ومشاهد متقابلة في النفس الإنسانية على حقائق متقابلة في سلوك الناس وسعيهم، ونتائج متقابلة مترتبة على هذا السلوك، ويتم ذلك كله في ربط وإحكام لا يتميز بهما في هذه الدقة والروعة سوى الأسلوب القرآني الفريد.

٢- في سورة الرعد:

سارت سورة الرعد كلها في أداء فني رائع أبرز عناصره هو المقابلة وحين نستعرض آيات هذه السورة يروعنا هذا التقابل بين مشاهد الطبيعة المحسوسة: الشمس والقمر والسموات والأرض، والليل والنهار والرواسى والأنهار، والنخيل صنوان وغير صنوان، والظلمات والنور، والزبد يذهب جفاء، والماء يمكث في الأرض لنفع الناس، والغدو والآصال.

والتقابل في الأشياء المعنوية بين السيئة والحسنة، والخوف والطمع والطوع والكره، والنفع والضر، والحق والباطل، والوفاء بالعهد ونقض الميثاق والسر والعلانية، والقطع والوصل، وبسط الرزق وقَدْرِه، والضلال والهدى والمحو والاثبات.

كما تتقابل مشاهد النفس وحركات البشر مما يتصل بعلم الله وإحاطته بتلك المشاهد وهذه الحركات، كالتقابل بين غيض الأرحام وزيادتها والغيب والشهادة وإسرار القول والجهر به، والاستخفاء بالليل والسَّرَب بالنهار والتقابل في تأثير دعوة الإيمان على النفوس، بين الداعى إلى الحق والداعى إلى الشرك ومن يستجيب ومن لا يستجيب، ومن يعلم أن القرآن حق ومن هو أعمى، وبين الله القائم على كل نفس بما كسبت وما جعلوا له من شركاء، وبين الذين يفرحون بالكتاب المنزل إلى الرسول والذين ينكرون بعضه.

ومن هذه المقابلات الفنية البليغة بين جزئيات السورة يشع لون من الموسيقى المتماوجة النغمات بين المعانى والألفاظ يشتد وقعها مع البرق والرعد والصواعق والسجود طوعا وكرها، ويهدأ مع الصابرين ابتغاء وجه ربهم والمنفقين سرا وعلانية، والدارئين بالحسنة السيئة، في صورة فريدة من التناسق البليغ لهذا النسق الراقى من التعبير القرآني الفريد.

ثالثا: نماذج أخرى متنوعة:

وهذه طائفة من النماذج الفريدة للمقابلة في القرآن الكريم لا تندرج تحت عنوان معين ولهذا أثرنا الحديث عنها كنماذج متنوعة. ومن هذه النماذج:

١- مقابلة في النفس البشرية:

عرض القرآن الكريم لظاهرة شائعة في نفوس البشر، تتصل بغريزة الإنسان ويظهر تأثيرها على قوله وفعله كلما دعا إلى ظهورها داع.. وتلك الظاهرة هى ما يعترى الإنسان من كبر وغرور وإعراض عن الله في حالة الرخاء والنعمى وما يقابل ذلك في وقت الشدة والضيق من إقبال على الله ولجوء إليه واستعانة به.

وهما خطان متقابلان في النفس الإنسانية تقابل الشدة والرخاء والعسر واليسر، والقرآن الكريم حين يعرض لهذين الخطين المتقابلين في نفس الإنسان إنما يحاول أن يهذب من انحرافها ويصلح من فسادها دون تصادم مع الفطرة والغريزة والآيات التي تعبر عن هذا التقابل، وتحاول تقويم الإنسان من خلاله كثيرة في القرآن

الكريم....

ومن ذلك قوله تعالى: (فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩)﴾ (الزمر: ٤٩). أعقبت هذه الآية بآيتين أخريين تحاولان تهذيب هذا السلوك عن طريق تهديد الإنسان بعذاب قد يصيبه مثلما أصاب من ساروا في هذا الدرب الخاطئ:

(قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١)﴾ (الزمر:٥٠-٥١).

ومثل هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧)﴾ (الإسراء: ٦٧).

فالمقابلة هنا ترد في صورة ملموسة لكل البشر بين حالة الإنسان عطبت به السفينة أو طغى عليها موج البحر فمسه الضر مسا خفيفا، فلم يجد من يستعين به إلا الله، وحالته حين نجاه الله إلى البر معرضا ناسيا كفورا...

ولأن هذا سلوك شائن في نفس الإنسان، فإن القرآن يعمد إلى تضخيمه وتنويع الإيقاع عليه، ثم يلجأ إلى تهذيبه والحد منه، فالآيات عقب هذا تهديد بخسف جانب البر حتى تنداح فيه مياه البحر، كما تهدد بإرسال قاصف من الريح في رحلة أخرى يغرق فيها هؤلاء الجاحدون:

(أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾ (الإسراء: ٦٨٠٦٩).

وللاطلاع على المزيد من مثل تلك الآيات يرجع إليها في مواضعها في القرآن الكريم.١٥

٢- مقابلة ثلاثية:

عهدنا في المقابلات السابقة في هذا البحث أن تكون بين طرفين اثنين: لفظين أو موقفين.. ولكن القرآن الكريم الذي لا تنقضي غرائبة يطلعنا على العجيب من الأساليب البلاغية التي لا يرقى إليها البشر.. ها هنا مقابلة بثلاثة أطراف وردت في قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم: ٥٤).

إنها مقابلة ثلاثية ذات حد وسط وطرفين:

والحد الوسط هنا هو القوة، يقابلها الطرف الأول والثالث وهو الضعف (ضعف – قوة – ضعف).

والآية تتحدث عن قدرة الله في خلق الإنسان وأطوار حياته، فكأن القوة هنا هى الخط البيانى الصاعد في حياة الإنسان هذا الخط الذي يمثل حدًّا وسطا لمقابلتين: الأولى بين الضعف والقوة، والثانية بين القوة والضعف، ولكنها في الأولى تمثل الضعف المتدرج الصاعد نحو القوة، ذلك الضعف المادى والنفسى منذ أن يبدأ الإنسان نطفة فعلقة فمضغة فعظاما ولحما، ثم يولد طفلا ويتدرج إلى الصبا والشباب إلى أن يصل إلى أقصى مراحل القوة وفي المقابلة الثانية التي بين القوة والضعف، يظهر لنا هذا الخط البيانى وقد بدأ في النزول والانحدار إلى مظاهر الضعف الجسدية والنفسية...

وبهذه المقابلة بين الماضى والحاضر والمستقبل، أو بين الصبا والشباب والكهولة، تتضح صورة الحياة للإنسان، وتتمثل أطوارها أمام ناظريه، فيحاول أن يأخذ من المراحل الأولى في حياته زادا ورصيدا ينتفع به في المراحل التالية.

وعلى هذا النمط من المقابلة الثلاثية يمكن اعتبار المقابلة في قوله تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾ مقابلة ثلاثية أيضا ذات حد وسط هو (يميتكم) وطرفين أولا هو (يحييكم) وثالثا هو (يجمعكم إلى يوم القيامة).

وهذه المقابلة تأتى ردا على منكرى البعث الذين يطلبون من الرسول إحياء آبائهم في الدنيا بعدما ماتوا: (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) ﴾ (الجاثية:٢٥-٢٦).

لتبين لهم أن الإحياء مرة أخرى في الدنيا لا داعى له، إنما سيكون ذلك يوم القيامة، وإذا كان الغرض من طلبهم هو إثبات قدرة الله على البعث، فلينظروا إلى قدرة الله على الإحياء والإماته في كل لحظه من لحظات الحياة.

ختام:

رأينا في هذا البحث أن القرآن الكريم

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

كنز أسرار لا ينفد وعندما تتفتح كوة النور أمام الباحث المتأمل فإنه يرى في القرآن الكريم من العجائب ما يؤكد إعجاز القرآن الكريم وتميز أساليبه عن أساليب البشر فقد أثبتنا في هذا البحث الصغير من أساليب المقابلة أنواعًا طريفة وجديدة نحسب أن أحدًا من الباحثين لم يسبق إليها، وأيدنا البحث بالأمثلة والتحليل البلاغي، ولعل ذلك يفتح المجال للباحثين لاكتشاف المزيد والجديد في القرآن الكريم، والله المستعان.

الهوامش:

١ الكشاف للزمخشري: ٢ / ١٧١.

٢ البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٢ / ٢٢٧.

٣ تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ١٠ / ٥٨.

٤ تفسير التحرير والتنوير، ١٠ / ١٠٤.

٥ تفسير المنار، ١٠ / ١٥٠، السيد محمد رشيد رضا، ط ١، مطبعة المنار: مصر، ١٩٣١م

٦ المثل السائر، ٢ / ٣٠١

٧ تفسير (جزء عم) للأستاذ الإمام محمد عبده، ٤٧، ط كتاب الشعب.

٨ أنظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي المتوفى ٧٩١هـ - ٥٧٨، ط ١، المطبعة البهية المصرية، ١٩٢٢م.

٩ □٢٨٩ - ٢٩٠، ط الحلبي: القاهرة.

١٠ في ظلال القرآن، ٦ / ٣٤٤٢.

١١ تفسير ابن كثير: ٥٥٦/٢.

١٢ وإنهما لبإمام مبين: يعني أن قرى قوم لوط والأيكة بطريق واضح يأتمون به في أسفارهم (كلمات القرآن: ١٥٣).

١٣ التفسير البياني للقرآن الكريم، للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ١٠٣/٢، ط ٣، دار المعارف: مصر

١٤ في ظلال القرآن، ٦ / ٣٩٢١.

١٥ وردت هذه الأيات في سورة (الزمر: ٨ – ٩)، (الإسراء: ٨٣)، (فصلت: ٤٩، ٥٠ – ٥١)، (الحج: ١١)، (الفجر: ١٥ – ١٦)، (الروم: ٣٣، ٣٦ – ٣٧).

المراجع

مراجع البحث ترتيبا هجائيا

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا:

١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، الإمام البيضاوى، ط ١، المطبعة البهية المصرية، ١٩٢٢م.

٢- البرهان في علوم القرآن (٤ أجزاء)، الزركشى (الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله ابن بهادر)، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، ط ١، الحلبى، مصر، ١٩٧٥م.

٣- التفسير البيانى للقرآن الكريم، الدكتورة بنت الشاطئ، ط ٣، دار المعارف، مصر.

٤- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٣م.

٥- تفسير جزء عم، الأستاذ الإمام محمد عبده، ط: دار الشعب، مصر.

٦- تفسير سورة الأحزاب، الدكتور مصطفى زيد، ط ١، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٧م.

٧- تفسير القرآن الكريم، الشهير ب (تفسير المنار)، السيد محمد رشيد رضا، ط ١، مطبعة المنار، مصر، ١٩٣١م.

٨- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (الحافظ عماد الدين ابو الفدا إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى)، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة.

٩- درة الناصحين في الوعظ والارشاد، عثمان بن حسن الخوبرى، ط: الحلبى، القاهرة.

١٠- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط ٧، دار الشروق، ١٩٧٨م.

١١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، ط، الحلبى، مصر، ١٩٣٩م.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2